ميلادنا، نحن المعاقين

(النهار، ميلاد ١٩٨٠)

"أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الناس".

أن تتجسّد الكلمة في مزود ويولد الإله في مغارة، لهو إطلالة الرجاء لنا، نحن ضعفاء الأرض ومعاقيها.

تُرى ألم يكن واحد منا، ليلة أمس، في زاوية المغارة الباردة، يحمل الطفل في بؤبؤ عينيه ويدفئه بجفنيه الدامعتين؟ بلى، فعلى باب المغارة، توقّفت جلبة الكون وجحافل سخافات البشر، باهتة مشدوهة أمام الطفل الإله وهو يراقصنا بابتساماته، نحن الذين صنّفنا الأقوياء ورفسونا باستعلاء.

إذ من أجدر منا من حمل يسوع برموش العين، وهو الذي استضافنا قلب الله وسار بنا على طريق الحياة؟

ومن أقرب منا إلى ذلك الضعيف، المرذول، التائه في صحارى ومتاهات البشر؟

ليلة الميلاد هي لنا يا رفاقي، هي ليلتُنا وعيدُنا، هي فرحتنا الكبرى، وهي مدخل لمن شاء أن يتسلّق جمالات قلوبنا ورحابها سعيًا إلى الجمال المطلق في وداعة يسوع.

* * *

ليلة الأمس مسحت ألم الوحدة عن قلوبنا. فقد همست في آذاننا أن المعاق بالفعل هو المعيق، وأن كل إنسان هو معاق ومعيق أبدًا، وأن السليم الوحيد في المطلق هو الله. وفهمنا من عِبَرها أن فقدان بعض حركة الجسد ليس عاقة بالنسبة لفقدان حركة المحبة في قلب ملتوٍ جاف.

العاقة الحقيقية هي في الاستسلام لمشيئة القدر. هي في الاسترخاء لسلطانه، لا في مقاومة العين لمخرزه.

أن أتحكّم بالقدر طالما صدري خفقان قلب، تلك هي لعبة الوجود. ساعة أرزح تحت حكمه، أكان ذلك يدًا مشلولة، أو نظامًا فاسدًا، أو حكمًا طاغيًا، أو بؤس أي رفيق لي في الإنسانية، فقد تنازلت عن لعبة الألوهة التي نفخها فينا المولود الجديد الآتي إلينا من بعيد.

في كل جولة للإنسان مع القدر، فشخة له على طريق الوجود، ونقطة جديدة في حواره مع الله.

* * *

وليلة الميلاد الذي وشّح السماء بالغيوم تحمل لنا أمل الإنسانية بضعفائها، لا بل حاجتها لهم. بذور الزراعين، وحملة المعاني الكبيرة هم. قلما نرى الحكمة مجلببة بالذهب، بل في قلوبهم تختبئ. والمعرفة تتواضع بقدر ما تعمق. والنفس يشعّ جمالها عندما تُزْهَق. كجبل الثلج يطفو ببعضه الصغير، وقوة معظمه لا تبدو واضحة إلاّ عند ارتطامنا بصخور القدر. على وجه الضعيف ترتسم صورة الله، وفي صوته نسمع ألحان الملائكة. وصمته، آه من صمت المعاق! كم هو غني بالعبر. بئر عميقة هو، نخشى أن نرى قبحنا في مرآتها الصافية.

وأنت إذا بحثت عن الضعيف بالفعل، لاهتديت أولاً إلى نفسك.

منذ ربع قرن، أتيت "المعاقين" أخدمهم، كأني القوي وهم الضعفاء المحتاجون.

بعد عشر سنين من نعمة المشاركة، شعرت إني واحد منهم، وأن كل إنسان معاق، فحفرنا، على مدخل معبدنا، عميقًا في الصخر، "سبحان السليم".

اليوم، بقدر ما تشتدّ العاقة على أحد أولادي في "الكفاءات"، بهذا القدر استوحي من جمالاته الدفينة. كم أشعر بتفاهة الكلمة في فمي وأنا أحادث الأصم. وكم تفوتني أحاسيس يتمتّع بها الضرير ببصيرته. وأختشع أمام طيبة السذاجة وصدق المعاني في قلوب بسيطة طاهرة لم تدّنسها معادلاتنا الملتوية. وأضمّ إلى صدري نفوسًا تعبة في أجساد تئن، مجبولة بالأوجاع، فتروي ظمإي من زخم الله المتأجّج في أحشائها.

* * *

وبنزوله إلينا إنسانًا فقد جعل الله من الإنسان محور الكون ودوافعه. ومن ضعيف الإنسان بنى حجر الزاوية. وبالإنسان الضعيف أختصر الطريق إلى قلب الله.

برفقة القلب الباكي المدمى فقط نلتقي الله ونترافق معه في حوار لا أجمل، ولا أغنى.

عبرة الميلاد هذه يبحث عنها عالمنا بكثير من التعطّش واللهفة. أكيد نعيش في عالم أكثر أنسًا، وبالتالي جمالاً، عندما نحترم ونحب ونستلهم ونتفاعل مع الطاقة المخزونة في كل ضعيف، مهما كانت، أكان هذا الضعيف معاقًا ضائعًا في الزوايا والخفايا، أم بلدًا متخلّفًا من مجموع أصقاع العالمين الثالث والرابع.

حضارة الإنسان اليوم المفعمة بالتكنولوجيا والأرقام والبأس والقوة، تزداد تعاسة وشراسة وقلقًا. تقدّمها المادي سيصل بها حتمًا إلى الاختناق إذا لم يتزاوج هذا التقدّم مع مقاييس أخلاقية جديدة مستوحاة من حاجيات الإنسان العميقة، الذاتية، الحميمة في المشاركة الفعلية بين قويّه وضعيفه، بين غنيّه وفقيره، بين عقله وقلبه.

هذه النظرة الأخلاقية من التآخي والمشاركة، كم يحتاجها لبنان ليبلسم جراح الإنسان فيه ويتعافى. فللعامل الأخلاقي الأثر الفعّال في كبوتنا. وبناء لبنان الغد لن يكون برصف الحجارة. فحجارة تعلو بدون بنية أخلاقية هي تهيئة السبيل لكارثة أخرى. ما ينقصنا هو أسس أخلاقية سليمة يُنمّى عليها النشء الطالع. نقطع بذلك الطريق على الانحرافات المتزايدة التي، لهو الفراغ وشدّة الخيبات التي يعيشها، يجد شبابنا الطريق الهيّن الواسع إليها.

على أرض أخلاقية صلبة نبني الإنسان المشارك المسؤول عن رصف وإعلاء المداميك.

يكفي أن نعطي الشاب الطالع لذة المساهمة في غلبة الحياة على العدم، لا العكس، ليدخل في الحلقة الجميلة التي توصله إلى مستوى المشاركة الإنسانية في بلد يبحث عن ثوابت أخلاقية.

ليُعط هذا الشاب المجال الكافي في جعل مواطن ضعيف، أي ضعيف، يقف، ويركض، ويضحك، ويفرح، ويصارع، وينجح، ويتفوّق، فيكبران معًا على درب الله، ويبدّدان بعض كآبة لبنان الحزين.

* * *

"وفي الناس المسّرة...".

ويبقى الرجاء، أنشودة الميلاد وفرحته الكبرى.

الرجاء من أن في كل إنسان طيبة، مهمل فسد هو، وفي كل معاق طاقة، مهما اشتدّت إصابته واستفحلت.

وهاتان الطيبة والطاقة تجدان مجراهما وتتفجّران بسخاء، وأي سخاء، عندما تصادفان الثقة بهما والمحبة لهما. في كل منحرفة ينبوع من الطيبة التي احترمها وأحبها مولود البارحة في المجدلية. في كل معاق مجال حي ليكون مسرح عجيبة. ما ينقصهما ليجليا هو روح الميلاد تنبعث من قلوبنا المتحرّرة.

وكما أن خيوط الفجر تشعّ من أحلك ساعات الظلام، كذلك تختبئ بذور الرجاء في مجالات تدعونا لليأس والاستسلام. حتى إذا ما اطلّ علينا الرجاء زاهيًا مبتسمًا، لفّنا بجناحيه وأطعمنا لذة الفرح الإنساني في المشاركة. ويصبح الرجاء المحقّق ساعتها خير داعية لأجمل وأعمق علاقة بشرية.

أذكر مشهد مربّية صرفت الوقت الطويل تعالج النطق عند متخلّف مصاب بشدة. وبعد شهور عديدة من المعاناة، الداعية ليأس وكلل، رأيتها يومًا تنفجر بكاءً وغبطةً. فقد استطاعت أن تستخلص كلمة (ماما) من بين شفتين كبَّلهما القدر، وتتبادل والفتى المتعثّر نظرة الرجاء من قعر عينين سمّرتهما العاقة.

تُرى، أليس في علاقة الرجاء بين المربية هذه وفتاها الناشئ، من الزخم الوجداني والتناغم مع سمفونية الحياة الرائعة والمشاركة الفعلية في تأنيس هذا الكون ودفء العلاقة الإنسانية، ما هو أصدق وأعمق وأقرب إلى روح الميلاد مما هو حاصل بيننا نحن، معاقين ومعيقين، الراكضون في مجاهل مجتمعاتنا الاستهلاكية؟

إلى هذا الفرح الحميم، العظيم، يدعونا الميلاد، وإلى غبطة الرجاء من كل واحد منا، نحن ضعفاء الأرض وملحها، دقّت بالأمس أجراس بيت لحم.

* * *

رائع ميلاد هذه السنة، وهو يفتح لنا باب سنة جديدة اختارتها الأمم لتكون السنة العالمية للمعاقين.

فيه التحدّي لنا، ميلاد هذه السنة، بوداعة وابتسامة المولود.

إنه يتحدّى لبنان الطريحَ الحزين. إذ لبنان إطلالة، وهذه رسالته الحقّة، عندما تُطرح مسائل الإنسان الكبرى في العالم. وفي مجالات التأهيل وفلسفته، لنا كلمة وإنجاز، بعيدان عن المعرفة المبتذل المألوف، والمعيق، بمقدور لبنان أن يتحاور بهما مع إطلالات عالمية رائدة أخرى.

وأما نحن، مواطنين ومؤسسات ودولة، فإننا نفرغ الميلاد من كل معانيه وأبعاده، إذا لم نرَ المصاب هو كل واحد منّا، وفي قلب كل منا إله جريح، وبحث عن رجاء، وسعي دائب دائم نحو غبطة الأب برجوع أولاده من البعيد.